المحاضرة التاسعة:

من أعلام التصوف في الأدب الجزائري:

ثانيا/ عفيف الدين التلمساني:

1- نشأته ووفاته:

عفيف الدين التلمساني: من شعراء القرن السابع الهجري " هو سليمان بن علي بن عبد الله بن علي، كومي النسب، تلمساني المنشأ، تلقى بها علومه الأولى، ولطلب العلم ارتحل إلى كثير من الحواضر العربية والرومية، واستقر بدمشق..... انتهج التصوف طريقة في تهذيب النفس وتقصي الحقيقة واتبع منهج الإمام محي الدين بن عربي، له شعر حسن ، يميل إلى الغموض إذ غلب عليه الرمز الصوفي، وكان يميل إلى فكرة الاتحاد[1] ...، اهتم بالفلسفة وحاول الغوص في بعض قضاياها؛ من خلال شرح عينية ابن سينا والتي مطلعها:

هبطـــت إليـــك مـــن المحـــل الأرفـــع ورقـــــــاء ذات تعـــــزز وتمنـــــع

(...) توفي بدمشق سنة 690هـ/ 1291 م عن عمر يناهز 80 حولا "، وهي بداية عصر بني زيان... وهذه الفترة شهدت ازدهارا ثقافيا كبيرا، كما " تميزت هذه الفترة بالاهتمام بالعلوم الدينية، وبالخصوص الأصل منها، وهذا الاهتمام الذي لاحظه الشاعر في بيئته المغربية تلك.

2- نماذج من أدبه الصوفي:

لاشك أنه كان ذا حضور في توجهه الصوفي الذي اختص به" ومن قوله في التصوف:

شـــهدتَ نَفْســـك فينَـــا وهـــي واحـــدة كَثيـــــرة ذاتُ أَوصـــــاف وأســـــماء

ونَحـــن فيـــك شَـــهِدنا بعـــد كَثْرتـــا عينًـــا بِهـــا اتَّحـــد المرئـــي ، والرائـــي

فَـــأَول أنـــتَ مـــن قبـــل الظهـــور لنَـــا و آخـــر أَنْـــت عـــن النَّـــازِحِ النَّـــائِي

وبـــاطن فـــي شـــهود العـــينِ واحـــده وظـــــاهر لامتيـــــازات الإبـــــداء

أَنْـــتَ المَلَقّـــن ســـري مـــا أفـــوه بِـــه وأَنَـــتَ نُطقـــي ، والمصـــغي ، لِنَجـــوائي"

والشاعر الصوفي الجزائري عفيف الدين التلمساني كأبي مدين وغيرهم من الشعراء المتصوفة نسج على منوالهم في الكثير من القضايا والموضوعات والمضامين المعبرة عن التجربة الصوفية، فقد هام في عشق الذات الإلهية و عبر عن حب خارق مثير، فترك لنا تراثا شعريا ضخما محاطا بالرمزية التي زادته جمالا وعذوبة ومما قال في هذا الغرض:

لاَ تَلُـــم صـــبوتي فمـــن حـــب يصـــبو إنّمـــــا يـــــرحم المحـــــب المحـــــب

كَيــف لا يوقــد النســيم غرامــي ، و لـــه فــي خيـــام ليلـــى مهـــب ؟
مـــا اعتـــذاري إذا خَبـــتْ لـــي نـــار ،و حبيبـــي أنـــواره لّـــيس تخْبـــوا ؟
هـــذه الحلـــة التـــي حـــلّ فيهـــا عقْـــد صـــبري و حلهـــا لـــي حـــب
مـــلأَ الكـــون حســـنُه فلهـــذا كـــل صـــب إلـــى معانيـــة يصـــبو

هي أبيات اقتطفناها من ديوانه الذي كان موضوعه صوفيا فلسفيا، و إذا تأملنا ما جاء فيها وقفنا على جملة من مصطلحات الصوفية المتعلقة بالغزل الصوفي من تجلي الأنوار الإلهية، إلى الحلول، ثم الكون، فالحسن فالجمال.

ويقول في موضوع الخمر الصوفي، حيث نلمس تعانقا بين سكر الصوفي و الأفكار الفلسفية، في تعبير شاعر الحقيقة المطلقة عفيف الدين التلمساني، يقول:

قُـــم يـــا نَـــديمي فالحميـــا تُـــدارِ أمـــا تـــرى الليـــل بهـــا قـــد أنـــار
كـــأس لهـــا الحكـــم . فمـــن أجـــل ذَا تعـــزل لـــيلا ، و تـــولى نهـــار
بهـــا اهتـــدى الســـاري إلـــى حانهـــا ومـــن ســـناها كوكـــب الصـــبح حـــار

إلى أن يقول:

يـــديرها فـــي الســـر ســـاق ، لـــه شـــمائل تســـلب عقلـــي جهـــار
قـــد حركـــت بالســـكر أعطافـــه و اســـكنتْ في الجفـــن منـــه انكســـار
محمـــرةُ الوجنـــة لكـــن إذا قابلهـــا المـــاء علاهـــا اصـــفرار
يســـكن مـــن يشـــرب كاســـاتها فـــي جنـــة بهـــا، و هـــي نـــار

وفي الفناء في الدات الالهية يقول:

لُـــذّ بِـــالغَرامِ، ولـــذَّة الأشْـــواق واخْتَـــر فنـــاك فـــي الجمـــالِ البـــاقي
و تَـــوقَّ مـــن كـــأسِ الصـــدود بشُـــربه مـــن مـــاء دمعـــك، فَهـــو نعـــم الـــواقي

هو فناء في الواحد الباقي، هروب من كل ما بالوجود للبقاء مع حضرة خالق الوجود، فالفناء أحد المحاور الهامة في الحب الإلهي، و يشكلان معا إحدى ركائز موضوعات الشعر الصوفي.

أما في الحلول والاتحاد الذي يُعد من الموضوعات التي تناولها الشعر الجزائري القديم من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري، و الحلول يراد به اتحاد جسمين، فيكون أحدهما إشارة إلى الآخر مثل حلول ماء الورد في الورد، في حين الاتحاد هو امتزاج شيئين إلى أن يصيرا شيئا واحدا وهو

أي تصيير ذاتين واحدة من حيث إن جميع الأشياء موجودة بوجود ذلك الواحد، وهو الحق تعالى .
وقد جاء على لسان عفيف الدين التلمساني

شـــهدت نفســـك فينـــا و هـــي واحـــدة كثيـــــرة ذات أوصـــــاف و أســـــماء

ونحـــن فيـــك شـــهدنا بعـــد كثرتنـــا عينـــا بهـــا اتحـــد المرئـــي و الرائـــي

إذن يعد عفيف الدين التلمساني من أبرز شعراء التصوف في القرنين السادس والسابع الهجريين، حيث شهد شعر التصوف في الجزائر في هذه الفترة تطورا وثراءً كبيرا.

المصادر والمراجع (الاحالات):

[1] الإتحاد: تصيير ذاتين واحد ة وهي حال الصوفي الواصل، وقيل هو شهود وجود الحق الواحد المطلق من حيث أن جميع الأشياء موجودة بوجود ذلك الواحد ، (ينظر: عبد المنعم الحفني ، المعجم الصوفي ، عربية للطباعة و النشر ، دار الرشاد ، القاهرة ط1 1417 هـ1997 / م ، ص: 11.